رسائل تلّغرافيّة
(٢٥)

آياتٌ تَحْتَاجُ إلى بَيَانٍ
«الآيةُ السابعة»

بلغه
الدكتور ابن الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، **أما بعد**:

فهذه بفضل اللَّه ومَنِّه والذي لا تتم الصالحات إلا به سبحانه، الآية السابعة في سلسلة: «**آيات تحتاج إلىٰ بيان**»، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهذه آية مشكلة يجب بيانها وتوضيحها؛ لأن هذه الآية سُمّيت: ميثاق الذرّ، وهذا لا يذكره أحد، ومن لم يقرأ هذه الآية ويفهمها، لن يعلم ما هي؟ وكيف هي؟ ومتىٰ كانت؟ وكيف حدث هذا الميثاق؟ وكيف يكون قبل بعثة الرسل إلىٰ كل قوم؟ ولم يقل اللَّه هذه الآية إلا في القرآن، وما كان معلومًا معروفًا عند قريش أو عند الأقوام الذين أُرسلت إليهم الأنبياء، فكيف نؤاخذ به مع قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؟!

لذلك قال القرطبيّ في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٢٤):

«وهذه آية مشكلة». اهـ

قلت: يعني من المتشابه الذي حُمل علىٰ المحكم ليظهر مراد اللَّه من الآية ومعناها.

قال الإمام الحافظ ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» بتصرّف (٣/ ٣٢٧، وما بعدها):

«يُخبر تعالىٰ أنه استخرج ذريّة بني آدم من أصلابهم، شاهدين علىٰ أنفسهم أن اللَّه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالىٰ فطرهم علىٰ ذلك وجبلهم عليه، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي «الصحيحين» [البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة** -وفي رواية: **علىٰ الملّة- فأبواه يهوّدانه، ويُنصّرانه، ويُمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة عجماء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**»، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يقول اللَّه تعالىٰ: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم**» [رواه مسلم (٢٨٦٥)].

وقال أبو جعفر بن جرير الطبريّ رحمه الله: حدثنا . . . . عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول اللَّه ﷺ أربع غزوات قال: فتناول القوم الذريّة بعدما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فاشتد عليه ثم قال: «**ما بال أقوام يتناولون الذريّة؟**» قال رجل: يا رسول اللَّه، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «**إن خياركم أبناء المشركين! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت علىٰ الفطرة، فما تزال عليها حتىٰ يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها، أو ينصّرانها قال الحسن: واللَّه لقد قال اللَّه في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾** [رواه الطبري في «تفسيره» (١٥٢٧٥)].

قال الإمام أحمد: حدثنا . . . . عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال:

«**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما علىٰ الأرض من شيء أكنت مُفتديًا به؟**» قال: «**فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك ب شيئًا، فأبيت إلا تشرك بي**» أخرجاه في «الصحيحين» [البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥)، وأحمد في «المسند» (١٢٢٢٩)].

وقال أحمد: حدثنا . . . . أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، فقال عمر: سمعت رسول اللَّه ﷺ سُئل عنها فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، واستخرج منه ذريّة فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنّة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»، فقال رجل: يا رسول اللَّه ففيم العمل؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه ﷻ إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنّة، حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار**» [رواه أحمد في «المسند» (٣١١)، (١٧٥٩١) قال أحمد شاكر: أسانيده صحاح، وأفاض فيه، ورواه الترمذي في «سننه» (٣٠٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في «المستدرك» (٤١٣٢) (٣٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبي، ولفظ الحاكم: «**لما خلق اللَّه آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلىٰ يوم القيامة أمثال الذرّ**» يعني: مثل النَّمْل، ولذلك سُمّي ميثاق الذرّ ثم أقر ابن كثير تصحيح الترمذي والحاكم وذكر روايات الحديث ثم قال:] فهذه الأحاديث دالة علىٰ أنّ اللَّه ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميّز بين أهل الجنّة وأهل النار، . . . .

- قال ابن جرير [في «تفسيره» (١٥٢٧٤)]: حدثني . . . حدثني ابن عباس

أن اللَّه مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلىٰ يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا، وتكفّل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه، فلن تقوم الساعة حتىٰ يُولد من أعطىٰ الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفّىٰ به نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يفِ به لم ينفعه الميثاق الأوّل، ومن مات صغيرًا قبل أن يدرك الميثاق مات علىٰ الميثاق الأول علىٰ الفطرة.

[فذكر طرق هذا الأثر ثم قال:] فهذه الطرق كلها مما تقوّي وَقْف هذا علىٰ ابن عباس...

وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربّهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس، وفي حديث عبد اللَّه بن عمرو، وقد بَيَّنَّا أنّهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم علىٰ التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة [كما مرّ في «الصحيحين»]، وعياض بن حمار [كما مرّ عند مسلم]، ومن رواية الحسن البصري [كما مرّ عند أحمد في «المسند»]، وقد فسّر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل من (آدم)، وقال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل: (من ظهره)، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعل نسلهم جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرنن كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الإنعام: ١٣٣]». اهـ

● **قلت**: فقد ثبت بالكتاب والسنة الصحيحة عند البخاري ومسلم، وأحمد في «مسنده» بسند صحيح، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، كما ظهر من

نقل ابن كثير، أن ميثاق الذر شرع اللَّه وحكمه، وسنة رسول اللَّه ﷺ القولية النصّية وكذلك صححه الحاكم ووافقه الذهبيّ، ولفظ الحاكم: «**لمّا خلق اللَّه آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلىٰ يوم القيامة أمثال الذرّ**»، وقد صحح ابن كثير أحاديث الباب في المسألة.

فهذه الآية في هذا المقال ظاهرة بيّنة كما مرّ، وفصّلها وبيّنها رسول اللَّه ﷺ في سنّته بأحاديث صحاح كما بيّن أئمة الحديث؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فأُزيل الإشكال واتضح المقال وللَّه الحمد والمنّة، فإذًا استقر الدليل وثبتت الدلالة، حتىٰ لو لم يذكر الإنسان ما حدث، وكيف حدث ومتىٰ حدث؟ فقد أخبرنا اللَّه ورسوله، وما علينا إلا السمع والطاعة؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وإنما يعرض الناس عن الكتاب والسنة بعقولهم الفاسدة، وعدم تصوّرهم لبعض الأدلة بالهوىٰ والجهل وعدم الوعي، والتشكيك في القرآن وكلام رسوله ﷺ، وهؤلاء محاربو اللَّه ورسوله، المشاقّون للكتاب والسنة بصريح الآية والحديث وقوة الدلالات للدليل الشرعيّ، فهؤلاء لا حظّ لهم من العلم، ولا الفهم، ولا التصور، ولا الإدراك، وليس ثمّ إلا الضلال والهوىٰ، فهؤلاء بين الجهل والتشكيك؛ كمنهج العلمانية الذين لا يؤمنون بكتاب ولا سنة، ويَصْدُقُ عليهم قول اللَّه تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ

إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ثم أزيد تفصيلًا علىٰ تفصيل في هذه الآية فأقول:

قال القرطبيّ في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٢٤-٢٢٧) مختصرًا:

«وهذه آية مشكلة، وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك ما وقفنا عليه، فقال قوم: معنىٰ الآية أن اللَّه تعالىٰ أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض، قالوا: ومعنىٰ ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ﴾: دلّهم بخلقه علىٰ توحيده؛ لأنّ كلّ بالغ يعلم ضرورة أنّ له ربًّا واحدًا، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ﴾ أي: قال: فمقام ذلك مقام الإشهاد عليهم والإقرار منهم؛ كما قال تعالىٰ في السموات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ذهب إلىٰ هذا القفّال وأطنب.

وقيل: إنه سبحانه خلق الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها [قلت -الكيّال-: وهذا ظاهر الآية لم سقطت كل نسمة هو خالقها مثل النّمل، وذلك كان في ميقات كل نسمة خرجت من الأرحام من لدن أول ولدين من البطن الأولىٰ لحواء وآدم، إلىٰ آخر إنسان وُلد من رحم أمه وكانت بعده القيامة].

قلت [القرطبيّ]: وفي الحديث عن النبي ﷺ غير هذين القولين، وأنّه تعالىٰ أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام [فذكر الأحاديث السابقة آنفًا ثم ذكر رواية فيها زيادة مهمة فقال:] وفي رواية في غير الترمذي: «**فحينئذٍ أمر بالكُتَّاب والشهود، فرأىٰ فيهم الضعيف والغني والفقير والذليل والمُبتلىٰ والصحيح، فقال له آدم: يا رب ما هذا؟ ألا سَوَّيت بينُهم! قال: أردتُ أن أُشكر**» [رواه ابن أبي حاتم (٨٥٣٥)].

وروىٰ عبد اللَّه بن عمرو في رواية قال النبيّ ﷺ: «**أُخِذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس**»، وجعل لهم عقولًا كنملة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربّهم وأن لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل، فشهد بعضهم علىٰ بعض، قال أُبَيّ بن كعب: وأشهد عليهم السموات السبع، فليس من أحد يُولد إلىٰ يوم القيامة إلّا وقد أُخذ عليه العهد. . . .

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن قيل: كيف يجوز أن يُعذّب الخلق وهم لم يذنبوا، أو يُعاقبهم علىٰ ما أراده منهم وكتبه عليهم وساقه إليه؟!

قلنا: ومن أين يُمتنع ذلك، أعقلًا أم شرعًا؟ فإن قيل: لأنّ الرحيم الحكيم منّا لا يجوز أن يفعل ذلك، قلنا: لأن فوقه فوقه آمرًا يأمره وناهيًا ينهاه، وربنا تعالىٰ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ولا يجوز أن يُقاس الخلق بالخالق، ولا تُحمل أفعال العباد علىٰ أفعال الإله، وبالحقيقة الأفعال كلها للَّه جَلَّ جَلَالُهُ، والخلقُ بأجمعهم له، صرَّفهم كيف يشاء، وحَكَم بينهم بما أراد، وهذا الذي يجده الآدميّ إنما تبْعث عليه رقّةُ الجبلّةِ، وشفقةُ الجنسية، وحبُّ الثناء والمدح؛ لما يتوقّع في ذلك من الانتفاع، والباري تعالىٰ متقدّس عن ذلك كله، فلا يجوز أن يعتبر به.

● واختلف في هذه الآية، هل هي خاصّة أوْ عامّة، فقيل: الآية خاصة؛ لأنه تعالىٰ قال: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ فخرج من هذا الحديث من كان مِن ولد آدم لصلبه، وقال جلّ وعزّ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣] [وهي الآية بعد الآية الأولىٰ في هذه المقالة] فخرج منها كل من لم يكن له آباء مشركون.

وقيل: هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد علىٰ ألسنة الأنبياء.

● وقيل: بل هي عامة لجميع الناس؛ لأنّ كل أاحد يعلم أنه كان طفلًا فغُذّي

ورُبّي، وأنّ له مدبّرًا وخالقًا، فهذا معنىٰ ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ومعنىٰ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أي: أن ذلك واجب عليهم، فلما اعترف الخلق للَّه سبحانه بأنه الرَّبّ ثم ذَهِلُوا عنه؛ ذكّرهم بأنبيائه وختم الذّكر بأفضل أصفيائه لتقوم حجّته عليهم فقال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ثم مكّنه من الصيطرة وآتاه السلطنة، ومكّن له دينه في الأرض.

قال الطرطوشيّ: إنّ هذا العهد يُلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة، كما يلزم الطلاق مَنْ شهد عليه به وقد نَسِيَه». اهـ

قلت: هذا تكميلًا لبيان المعنىٰ المراد من الآية، ودفع التعارض عنها، واتضاح معناها، وحمل المتشابه المحتمل علىٰ المحكم، والمجمل علىٰ المبين، بشرح الآية بالحديث والآية بالآية، وكلام أهل العلم من الصحابة ومَنْ بعدهم كما ذكرت فيما قاله ابن كثير مفصلًا، وما قاله القرطبيّ آنفًا تتميمًا للبيان، واللَّه المستعان، وعليه التكلان، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد للَّه رب العالمين.

بلّغه

الباحث الشرعي الدكتور: عيد بن أبي السعود الكيَّال

دكتوراه من كلية الشريعة الإسلامية

جامعة الأزهر بالقاهرة